

فضيلة العفة

العفة : فضيلة الفضائل الإنسانية، وخلة من أجمل الخلال، التي تسمو بالنفس، وتصل بها إلى مراقى السعادة.

والعفة: ضبط النفس عند الشهوات وقسرها على الاكتفاء، بما يحفظ الصحة، واجتناب السرف والتقصير، وقصد الاعتدال. وأن يكون ما يقتصر عليه من الشهوات على الرجة المستحب المتفق على ارتضائه، وفي أوقات الحاجة التي لا غنى عنها وعلى القدر الذي لا يحتاج أكثر منه.

والعفة : إحدى الفضائل الكبرى، وهي الحكمة، والعفة ، والشجاعة، والعدالة، فالحكمة فضيلة العقل، والشجاعة فضيلة القوة الغضبية، والعفة فضيلة القوة الشهوانية، والعدالة هي الفضيلة الجامعة بين هذه الفضائل كلها.

ويرى ابن مسكويه: أن الفضائل التي تحت العفة كثيرة منها : الحياء، والدعة، والصبر، والسخاء، والحرية، والقناعة، والدمائة والانتظام، وحسن الهدى، والمسألة والوقار، والورع.. فالعفة أصل لكثير من الفضائل الهامة، ومن حرم العفة لم تتم له واحدة من الفضائل الإنسانية، ومن يفقد العفة لا يثبت على محن الأيام، ولا يقنعه قليل ولا كثير ، ولا يمسك لسانه عن باطل، ولا يتوزع عن الولوغ في الأغراض، ولا يستطيع أن يتخلص من تعطيش نفسه إلى الانتقام.

وكذلك لا يستطيع أن يسخو عند نداء صوت الواجب، ولا أن يعدل في معاملته بل يتمنى لو عاد كل نفع إليه، واجتمع كل خير لديه.

والعفيف من يياشر الأمور على وفق الشريعة والمروءة والعقل.

والعفيف يعطى الكثير إن وجد، ويكتفى بالقليل إن فقد، ويجازى على الصنيعة إن استطاع يمثلها أو خير منها ، ، أو بالشكر حين يعجز عنها.

والعفيف يسكت عن الخنا والفحش ، ويزهد فيما ليس من حقه وإن عضه
البؤس بنابه ، وجرعه مر شرابه ، يعاف كل خير وراءه والمن والأذى ، وينأى بجانبه
عن مواطن الصغار . وتكبر نفسه حيث تتضاءل كل نفس ، ويتوارى حيث لا
يتظاهر إلا كل خسيس . ويتكرر كل شحيح ، ويمنع كل بخيل .

ولست العفة بمانعة من طلب الحق بالوسائل الشريفة والسعى إلى المعالى من
وجوهها المشروعة . وما أبدع قول عنترة :

يخبرك من شهد الواقعة أننى

أخشى الوغى وأعف عند المغنم

وقول متمم يرثى أخاه مالكا :

لا يضمّر الفحشاء تحت ردائه

حلو شمائله عفيف المئزر

وقد نجد فى بحوث كثير من العلماء من لا يفرق بين العفة والقناعة لتقارب
مدلوليهما ، ولكثرة ما يقع فى أساليب اللغة من التسامح ، لأن الفضائل الإسلامية
تلتقى كلها فى مجرى واحد ولكن الفرق بين العفة والقناعة فى باب الأخلاق
ظاهر بين . إذ العفة تقتضى ضبط النفس عن جميع الشهوات وعن كل مالا يليق
بإنسان فاضل . فالعفيف تنهاه عفته عن التعرض للمحاور مادي منها وما جل ،
وعن الخوض فى الأعراض وعن مماراة السفهاء ، وعن كل ما يمس الكرامة .

أما القناعة التى هى الاكتفاء باليسير من مطالب البدت فقد توجد حيث لا
توجد العفة ، فقد يقال على رجل إنه قانع لأنه يكتفى بأقل مطالب البدن ، ولكن
لا يقال عليه إنه عفيف لأنه لا يعف عن الكذب والغيبة .

ويذكر الباحثون فرقا آخر : وهو أن العفة فضيلة ذاتية لاتتغير بتغير الأحوال
والأشخاص أما القناعة فنسبية ، فإن ما يقنع به بعض الناس لا يقنع به آخرون .
كذلك ما يعد قناعة اليوم قد لا يحسن الاقتناع به غداً وبالعكس . وقد نشاهد ذلك
أو نراه رؤية علمية . وهذا امرؤ القيس وهو لا يزال فى مجده يقول .

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة

كفاني ولم أطلب قليل من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثّل

وقد يدرك المجد المؤثّل أمثالي

وعندما أحس بتقاصر قواه وعجزه عن تحقيق آماله قال :

لنا غنم نسوقها غزارا كأن قرون جلتها العصي

فتملاً بيتنا أقطا وسمنا وحسبك من غنى شبع وري

ولعلنا ندرك في وضوح أن العفة لا توجد إلا حيث توجد مواقع الشهوات ويسلط عليها العقل لضبطها كما يجب . ولهذا قدم الله سبحانه وتعالى الأمر بغض البصر، على الأمر بحفظ الفرج، فقال من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «اضمنوا لى ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة، اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا ائتمتم، وغضوا أبصاركم، واحفظوا فروجكم، وكفوا أيديكم».

فالنظر رائد الفجور والعصيان، والمثير للشهوات، والمحرك للمفاسد، ولهذا أمرنا الشاعر الحكيم بتلافي هذا الضرر في أول أمره قبل أن يستفحل . والله در القائل:

كل الحوادث مبداها من النظر	ومعظم النار من مستصغر الشرر
والمرء مادام ذا عين يقلبها	فى أعين الغيد موقوف على الخطر
كم نظرة فعلت فى قلب صاحبها	فعل السهام بلا قوس ولا وتر
يسر مقلته ماضر مهجته	لامرحباً بسرور جاء بالضرر

كذلك تجد الإسلام قد كلف المرأة بغض البصر، وعدم النظر إلى أجنبي منها كما حرم عليها أن تبدى دينتها خوفاً من الافتتان بها، ولكي تصل بعفة نفسها، وطعارة ذيلها، إلى صون كيانها وحفظ مركزها. قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

وروى البزار والدارقطني من حديث على رضى الله عنه أنه عليه السلام قال لابنته فاطمة الزهراء رضى الله عنها (أى شيء خير للمرأة؟ قالت : أن لا ترى رجلاً ولا يراها رجل، فضمها إلى صدره. وقال : ذريه بعضها من بعض والله سميع عليم).

وإذا رغب المسلم لنفسه ولأسرته حياة طيبة، وأحب أن يعيش مصون العرض موفور الكرامة، فليتأمل قول النبی الكريم محمد عليه السلام «عفوا تعف نساؤكم وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم».

فقد جعل الرسول الكريم عفة الزوجات مرتبة على عفة الأزواج ويقول الإمام الشافعى فى هذا المعنى أبياتا كلها تفيض بالعظة البالغة:

عفوا تعف نساؤكم فى المحرم	وتجنبوا مالا يليق بمسلم
إن الزنا دين فإن أقرضته	كان الوفا من أهل بيتك فاعلم
إن تزن فى امرأة بألفى درهم	فى البيت قد يزنى بدون الدرهم
من يزن به ولو بجدارة	إن كنت يا هذا ليبيبا فافهم
يا هاتكا حرم الرجال وكاشفا	ستر الحرائر عشت غير مكرم
لو كنت حرا من سلالة طاهر	ما كنت هتاكاً لحرمه مسلم

وإذا كان المسلم لا يرضى لأهله السوء والفحشاء فكذلك من الإيمان ألا يرضاه لغيرهم. وقديما قيل: إذا أردت ألا تؤذى فلا تفعل الأذى.

والعفة فى الإسلام فى شأنها شأن كثير من الفضائل السامية لا تحصل ملكتها بالتعليم النظرى، ولا تتم فضيلتها بالأمر والنهى فحسب، بل لابد وأن يصاحب ذلك قدوة ورياضة عملية. فإذا لقن النشء العفة، فلكى يآلفها، لابد أن يكون المربي عفيفاً قبل كل شىء ينبأى عن الدنيا، ويحبس نفسه عن نزواتها، فلا يعطى نفسه من حاجات البدن الا بقدر الحاجة فى أوقاتها المناسبة. وأن يتعود حين يسر فطم النفس عن مطالب التمتع، حتى إذا ما نزلت به الأيام عن مستواه، ظل كريم النفس، موفور الكرامة.

وإن عفة رب الأسرة عن المحارم لتكون أبلغ درس فى العفة يلقيه لزوجته وأولاده. وإنه ليندر أن ترى فاجراً من بيت عفيف وإنه لمن فضل الله عن المسلمين أن كانت العفة الكاملة خلق نبينا محمد ﷺ وخلق أصحابه الأمثال وتابعيهم الأفاضل وعلماء الإسلام الأعلام.

فيا حبذا لو أننا جميعاً تنبعنا أسرار التعليم الإسلامية، واتبعنا تلك الإرشادات الحكيمة، وعملنا بمقتضى توجيهات الإسلام لكننا من أقوى الأمم بأساً، ولعاد لنا مجدنا الأصيل.
